من موضوعات الشعر الصوفى
الحب الإلهى

د/ عبد الحميد الضوى لبيب على

نلاحظ أن موضوع شعر الحب الالهى هو من أكثر الموضوعات التى تناولها شعراء مصر والعالم العربى ممن لهم علاقة وثيقة بالتصوف، لأن هذا اللون من الفنون هو أساس علاقة الصوفى بربه ، وطريق الوصول الى المعرفة بالذات العلية وهو السبيل للمشاهدة والاتحاد والفناء فى كنه ذاته القدسية ، وهذا غاية ما يريده الصوفى .

واذا أردنا أن نبين مفهوم الحب الالهى يمكن أن نقول هو ميل الصوفى للذات الالهية وعشقه لها ، وحديثه الدائم عنها وهذه الذات هى محبوبته الأولى بلا منازع لأن فى عشقه لها ضمن الخلود والفناء فيها وكيف لا ؟ وهى معبودته التى يتمنى رضاها ووصلها ويخطب ودها وينعم لقربها ويتألم لصدها ويجزع لبعدها والصوفى فى حب الذات العلية حب دائم بها دائم التقرب اليها كلما دنا لخطوة تتمنى أن يتقدم خطوات ، وكلما شرب كأسا أراد أن يشرب كئووسا وهو فى شوق وحنين الى تلك المعشوقة التى يسلك فى حبها جميع أنواع المجاهدات والمكابدات والرياضيات والحب الالهى لدى الصوفى ليس حبا من جانب واحد . انما هو حب متبادل بينه وبين لخالقه لأن الدلائل والارشادات فى عرف الصوفية تشير الى ذلك . فالله

سبحانه وتعالى يقول « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » .

وقد أخذ الصوفية هذا اللون طريقا لهم ومنهاجا لأنهم عولوا فى هذا المجال على الحديث القدسى الذى يقول فيه رب العرش العظيم « لا يزال يتقرب العبد الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به » .

ان الذات العلية جديرة بأن تغنى رابعة العدوية التى فتحت الطريق لمن جاء بعدها من الصوفية ، فهى التى أخذت كلمة الحب فهى مصدر نعيمها التى لا تنقطع عنها ، كما ان الله العلى القدير أهل لأن يحب لجلاله وجماله تقول رابعة فى هذا المعنى .

أحبك حبين حب الهوى
وحبا لانك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولقد قالوا فى تفسير البيت الأخير ، ان (ذا) اشارة الى

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١ .

(٢) احياء علوم الدين جـ ٤ ص ٢٥٩١ دار الشعب .

المعاينة فى الدنيا (وذلك) اشارة الى المعاينة فى الآخرة وقال الغزالى فى احياء علوم الدين : لعلها أرادت بحب الهوى حب الله لاحسانه اليها وانعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وأرادت بحبه لما هو أهل له الحب لجلاله وجماله الذى انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما(٣) .

فرابعة سارت فى حبها للذات العلية وطاعتها فعباداتها ترتبط بمصيرها وطاعتها سبيل الرضا والمنى .

لقد كانت تقوم ليلها وتصوم نهارها متفانية فى رضى المحبوب واضعة أمام ناظريها قول ذاته القدسية : « ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا »(٤) كان سجودها لذاته يطول ويطول لعلها تحظى بالقرب والرضا حتى أضناها ذلك العشق وخار قواها وأبكاها فمن الله عليها بالرضا والعطف تقول فى ذلك :

وزادى قليل ما أراه مبلغى ... أللزاد أبكى أم لطول مسافتى
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائى فيك أين مخافتى(٥)

والحب بالمفهوم الفلسفى الصوفى الذى يعنى العشق والهيام بالذات العلية شاع فى أقوالهم من أمثال الامام الجنيد الذى وضع اهتمامه كله بمعنى كلمة (الحب الالهى) ليبين مراميها ومقاصدها مثل قوله :

---

(٣) المرجع السابق جـ ١٤ ص ٢٥٩٨ .
(٤) سورة الانسان اية ٢٦ .
(٥) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٠٢ .

المحبة هى ميل القلب(٦) وكذلك الحلاج الذى كان لا يغفل عن كلمة الحب ، فأسرف فيها اسرافا شارحا معناها يقول فى ذلك :

جنونى لك تقديس وظنى فيك تهويس
وقد حيرنى حب وطرف فيه تقويس(٧)

وكذلك (أبو علغ الروذ بارى) وهو من متصوفى القرن الرابع الهجرى الذى يقول :

من اذا لاح لائح مشرقى هام وجدا عليك ان لم تكنه
واذا قال لا أقول ببين بان عنه لبان ان لم تبنه
يافتى الحب يافتى الحق سرى عنك مستودع لديك فصنه(٨)

وأيضا نرى الامام يحيى بن معاذ(٩) الذى حكى عنه أنه كتب الى أبى يزيد رضى الله عنهما رسالة يقول له فيها : انى سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته فكتب اليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض ، وما روى بعد ، ولسانه وهو يقول هل من مزيد وأنشدوا فى هذا المعنى كما ذكر اليافعى :

عجبت لمن يقول ذكرت ربى
وهل أنسى فاذكر ما نسيت

---

(٦) انظر التعرف لمذهب أهل التصوف لأبى بكر محمد تحقيق د/عبد الحليم محمود ١٩٦٠ .

(٧) أخبار الحلاج تعليق ماسينون وبكراوس ص ٢٩ ج ٣ ١٩٣٦ .

(٨) راجع طبقات الصوفية للسبكى ص ١٠١ ج ١ .

(٩) جمهرة الأولياء لمحمود أبو الفيض ج ٢ ص ١٤١ ط ١٩٦٧م .

شـــربت الحب كأسا بعـــد كأس
فما نفـــذ الشراب ولا رميت(١٠)

لقـــد اهتم المتصوفة بكلمة الحب ومدلولها ومقصدها فجعلوا لها النصيب الأكبر فى مؤلفاتهم ففى الرسالة القشيرية باب كامل للمحبـــة الصوفية تحت عنوان قول الله سبحانه وتعالى : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه »(١١) وذكر فى هـــذه الرسالة ما رددده الشعراء المتصوفة من لفظـــة الحـــب التى شاع عبيرها فى وسطهم الروحى ومن ذلك قول السرى السقطى وهو من أحـــد تلاميذ معروف الكرخى(١٢) .

ولمـــا دعيت الحـــــب قالت كذبتنى
فمالى أرى الأعضـــاء منك كواسيا
فما الحـــب يلصق القـــلب بالحشى
وتذبل حتى لا تجيب المنـــــاديا

وكذلك فى كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف لأبى بكر محـــــمد الكلاباذى جعل الباب الحادى والخمسين منـــه تحت عنوان فى أقوال الصوفيين عن المحبـــة الالهية ، ومما جاء فى هذا الباب(١٣) قـــــول أبو عبد الله النباجى :

---

(١٠) نشر المحاسن الغالية لليافعى ص ٢١٠ ط ١٩٦١م
(١١) المـائدة آية ٥٤ .
(١٢) انظر جمهرة الأولياء ص ١٤٢ الى ص ١٤٥ .
(١٣) التصرف لمذهب أهل التصوف ص ١٠٩ وما بعدها .

(المحبة لذة فى المخلوق ، واستهلاك فى الخالق ، بمعنى أنه لا يبقى لك حـظ ، ولا يكون لمحبتك علة ، ولا تكون قائما بعـلة(١٤) ونرى أبا القاسم النصرابادى يقول (المحبة مجانبة السلو على كل حال)(١٥).

ويقول أبو الحسين النورى (المحبة هتك الأسرار وكشف الأسرار ، وحينما سئل عن الحبيب والخليل قال :

ليس من طولب بالتسليم كمن بادر بالتسليم ، ثم قال :

وكم رمت أمرا أخـرت لى بانصرافه
وما زلت بى منى أبـر وأرحـما
عزمت عـلى أن لا أحس بخـاطر
من القلب الا كنت أنت المقـدما
ان لا ترانى عنـدما قـد نهيتنى
لأنك فى قلبى الكبير المعظـما(١٦)

وهكذا رأينـا اهتمام الصوفيين بالحب الالهى فأطالوا فى مفهومه وزالوا اللثام عن مراميه وغايته فكان لهـذا الحب النصيب الأوفر فى أدبهـم .

ومن الملاحظ أن الحب الالهى عنـد الصوفية قـد تطور واختلط بكثير من الآراء الفلسفية وأول ما يلفت الأنظار فى شعر الحب الالهى

---

(١٤) الحب الالهى عند ابن عربى للدكتور عبد الفتاح الدماصى ص٦٦١
(١٥) نشر المحاسن الغالية فى فضل المشايخ الصوفية ص ١٣٩ .
(١٦) المرجع السابق ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

في مصر ظاهرة الرمز بمعنى استخدام شعراء الصوفية لغة الغزليين والخمريين في التعبير عن حبهم وعشقهم للذات القدسية ٠

ويلجأ الصوفي الى الرمز لاشباع حقيقة روحية غائرة في وجدانه فملأت عليه أحاسيسه ومشاعره فاصبح لا يتكلم الا بالحب وبالاضافة الى ذلك فانه الرمز الأساسي الذي يقوم عليه أدب هؤلاء الصوفية(١٧) عامة والحب الالهي خاصة كما أن لغة الحب الالهي الرمزية أصبحت لغة عالمية يتداولها جميع الصوفية على اختلاف لغاتهم وأجناسهم وأوطانهم(١٨) ونجد الشعراء الصوفيين كثيرا ما يدور على ألسنتهم شعر الغزل العذري من ألفاظ الوجد والغرام والعشق والهيام واللوعة والصبابة والهوى والسقم والضنى والنحول والذبول وغير ذلك ولكن هذا الغزل والعشق الذي يرمز اليه الصوفي هو عشق الجمال الالهي المطلق والحسن الرباني المجرد بعيدا عن الجمال الحسي والمظاهر المادية ٠

يقول في ذلك ابن الجبري :

عشقوا الجمال مجردا بمجرد الرو
ح الذكية عشق من زكاها
متجردين عن الطباع ولؤمها
متلبسين عفافها وتقاها(١٩)

---

(١٧) التصوف في الاسلام لعمر فروخ ص ٩٩ بيروت ١٩٤٧ ٠

(١٨) راجع التصوف الاسلامي والثورة الروحية للدكتور أبو العلا عفيفي ص ٢٤٨ دار المعارف ١٩٦٣ ٠

(١٩) عيون التواريخ لابن شاكر ص ٣٨٠ مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢١٤٩ بتاريخ طلعت ٠

ونرى مثل هـذه الألفـاظ ، جليـة تدور على لسـان ابراهيم الدسوقى حيث يقول :

تجـلى لى الحبيب فى كل وجهـة
فشـاهدته كل معنـى وصـورة
وخـاط بنى منى بكثيف سـرائرى
فقال أتدرى من أنا قلت منيتى(٢٠)

وترى ابن الفـارض الذى نقب بسـلطان العاشقين يظهر ما فى سويداء قلبـه وما يجيش به صـدره وحسه ومشاعره من حب خضم زاخر مـلأ عليـه حيـاته فلا يرى سوى ذاته العلية ولا يعشق سواه يقـول :

وحيـاة أشـواقى اليـك وحرمة الصـبر الجميل
لا أبصرت عينى سـوا ك ولا صبوت الى خليل(٢١)

فحب الصوفى وغرامه وهيامه بالذات القدسية هو سر حيـاته وأنس وجوده وذلك فى قوله :

فمن لم يمت فى حبه لم يعش به
ودون اجتناء النحل ما جنت النحل(٢٢)

---

(٢٠) راجع الطبقات الكبرى للشـعرانى جـ ١ ص ٢٠١ دار الطباعة والطبعة الثانية .

(٢١) ديوان ابن الفارض ص ١١ وما بعدها .

(٢٢) المرجع السابق ص ٨٣ مكتبة القاهرة ١٩٧٢م .

والشاعر الصوفى فى حبه الالهى يرمز للذات العليـة بأسـماء محبوبات تراثية مثل (لبنى وعزة وبثينة وليلى) وأن يكن قـد أكثر من استخدام اسم ليلى لمـا لها من قصة ملأت طباق الأرض وكانت مثالا المحبين المتفانين فى حبهم الى آخر رمق من حياتهم وهـذا الرمز سار عليـه الصوفية فى أقوالهم شـعرية كانت أم نثـرية وهـذا الرمز لا يعبر فيـه الصوفى عما يريده تعبيرا صريحا وانما يسلك سـبيل الرمز والتورية وذلك لأنهـم لا يخاطبون العـامة من الناس ، وانما يخاطبون الخاصة كما أنهم يريدون من متذوقى أدبهم أن يعملوا عقولهم وأن يصفوا تفكيرهم ويفطنوا الى ما يريدونه حتى يستقر ذلك المفهوم فى الوجدان ويأخذ ذلك ولقد نقل زكى مبارك فى كتابه (التصـوف الاسلامى) كثيرا من هـذه المصطلحات(٢٣) من رسـالة اصطلاحات الصوفية لمحيى الدين بن عربى ثم يقول بعـد نقل هـذه الاصطلاحات فالصوفية فى جميع العصور كانت لهم رموز واشارات ولو دون المؤلفون كل ما اصطلح عليـه الصـوفية لكان من ذلك شىء كثـير • والمتـأمل لمصطلحاتهم وألفاظهم يراها تدل على لبـاقة وحصـافة ، فألفـاظهم المعاشية والاجتماعية وضـعت فى الأصل بستر معـانيهم عن عـامة الناس(٢٤) « ولان الرموز الدينية غالبا ما تفقد قيمتها عنـد تغيـير أجواء المعتقدات(٢٥) لذلك سلك الصوفية فى التعبير عن مواجـدهم وأحوالهم طريق الرمز غير عابئين بالنقاد ، لأنهم غامضون فيما يقولون

---

(٢٣) زكى مبارك فى التصوف الاسلامى ص ٧١ وما بعدها •

(٢٤) المرجع السابق ص ١٨ •

(٢٥) الأجوبة المرضية عن قواعد الصـوفية للشـعرانى ص ٦٧٣ مخطوط بمكتبة الأزهر •

وهـذا الغموض يفسره ويفهمه الذين عاشوا من أجله وأخلصوا نياتهم له يقول ابن عربى :

يا من يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

وعندما استنكر عليـه من يجالسونه بقـوله هـذا كيف تقول انه لا يراك وانت انه يراك ؟ قال :

يا من يرانى مجرما ولا أراه آخـذا
كم ذا أراه منعمـا ولا يرانى لائـذا

قال المقصود من هـذا وشبهه نعلم أن كلام الشيخ رحمـه الله تعالى مؤول وانه لا يقصد ظاهره ، فأحسن الظن به فلا تنتقد بل اعتقد وللناس فى هـذا المعنى كلام كثير والتسليم أسلم والله بكلام أولائه أعلم(٢٦) • وليس ابن عربى وحده فى النحلبة بل غيره الكثير والكثير صالوا وجالوا فى هذا الميدان سنشير اليهم فى حينه • والأسباب التى جعلت الصوفية يستخدمون هـذه الرموز فى التعبير عن حبهم الالهى وعشقهم للذات والهيام بها هو ما قاله الامام الجنيد : « انهم رمزوا غيرة على طريقتهم أن يدعيها غيرهم بمطالعة كلامهم (٢٧) لأن حقائقهم أسرار استودعها الله قلوبهم ، وألفاظهم تحمل من المعانى التى وهبها لهم الله عز وجل دون غيرهم •

وترى القشيرى يطرح لنا فى رسالته من هذه الأسباب حيث قال :

---

(٢٦) المرجع السابق ص ٨٢ •

(٢٧) الأجوبة المرضية عن قواعد الصوفية للامام الشعرانى ورقة ١٧٣ وجه مخطوط •

(هذه الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والاجمال والستر على ما بينهم فى طريقتهم(٢٨) حتى لا تشيع هذه المعانى عند غيرهم فتكشف عن أسرارهم ، وتكون مستهلكة تلوكها الألسنة فى كل برهة وهم أحرص الناس على حفظ أسرارهم وابقائها لأنفسهم •

ومن هذه الأسباب التى أراها أن الصوفى يلجأ الى الرمز لخصوصية أخصه بها خالقه لأنه يعلم علم اليقين أن هناك علم شريعة وعلم حقيقة فاختصه الله بعلم الحقيقة ــ الباطن ــ دون غيره فجمع بين الشريعة والحقيقة فاستخدم علم الباطن واختصه برموزه •

والملاحظ على الرمزية الصوفية أنها لا تدل على معان محدودة مضبوطة كما تدل المصطلحات العلمية(٢٩) لأنها لا ترجع الى العقل بقدر ما ترجع الى الوجدان والحس والشعور لأن هذه المعانى وتلك الرمزية لا سبيل الى ذوقها الا بالوجدان(٣٠) •

وخمر الصوفية لا يعرف طعمه الا من ذاقه وهذا ما يفسره لنا ابن الفارض سلطان العاشقين فى الذات العلية حيث قال :

وعنى بالتلويح يفهم ذائق غنى عن التصريح للمتعنت(٣١)

---

(٢٨) الرسالة القشيرية ص ٣٣ مطبعة الحلبى طبعة ثانية ١٩٥٩ •

(٢٩) الرمزية فى الأدب العربى • للدكتور درويش الجندى ص٣٤٢ دار النهضة •

(٣٠) الوحيد فى سلوك أهل التوحيد لعبد الغفار بن نوح ص ٤٠ مخطوط دار الكتب المصرية •

(٣١) ديوان ابن الفارض ص ٤٩ •

من أجل هـذا نرى اللغة الرمزية من لوازمهم فهى بمثابة الخضم الزاخر الذى ينهل منـه الصوفى جواهره فى التعبير والترجمة عن حبه الالهى وعشقه للذات العلية فكانت تلك اللغـة من شخصية الصـوفية والسـمة التى تميزه من النـاس ومن أمثـلة ذلك ما تراه فى قـول ابن الفارض :

هل نار ليلى بدت ليـلا بذى سـلم
أم بارق لاح فى الزوراء فالعلم(٣٢)

كما يقـول :

ففى مرة فيـا وأخـرى كثـيرا
وآونة أبـدو جميل بثينـة
تجلت فيهـم ظاهـرا واحتجبت با
طنا بهـم فاعجب لكشف بسرة(٣٣)

وكذلك يقول ابن العسقلانى :

ألا هـل لهجـر العـامرية أقصـار
فتقضى من الوجد المبرح أوطـار
ويسـقى عليل من عليل مولـه
له النجم والجوزاء فى الليل سمار(٣٤)

---

(٣٢) ديوان ابن القارض ص ٧٩ .

(٣٣) ديوان ابن القارض ص ٤١ .

(٣٤) مرآة الزمان مخطوط بدار الكتب جـ ٧ ص ٢٧٦١ للبونينى رقم ١٥١٦ تاريخ .

ويقول ابن الفارض فى الرمزية أيضا :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

فخمر ابن الفارض هذه هى غير الخمر المعروفة وانها خمر قديمة قدما لا يدرى مداه فهى خمر وجدت وتم السكر بها قبل أن توجد الكروم التى هى أصل الخمور المعروفة اذا هذه خمر خاصة بالصوفية لا يدرك حقيقتها الا هم أنفسهم وهى مثل الخمر المعروفة فى مقدرتها على احداث نفس الأثر من خمر الكروم المعهودة من النشوة والسكر عندهم بطريقة يحسونها وحدهم فهى خمرة المحبة الالهية التى ينزع منها كؤوسا دهاقا اذن الخمر اطلاق رمزى غريب عمد فيه الى التصريح بحقيقة مدركة عندهم ، وفيه اعتماد على الاشارة وايثار للتلويح ، وبعد عن المعانى الحقيقية بما يعصيها على الافهام التى لم يكتب لها القرب من عالم الصوفية الرحيب(٣٥) .

ونرى استخدام الشاعر الصوفى هذه الخمرة وما يتصل بها من ألفاظ فى قول ابن الفارض كذلك :

سقتنى حميا الحب راحة مقلق
وكأس محيا من عن الحسن جلب
فأوهمت صحبى أن شرب شرابهم
به سر يسرى فى انتشائى بنظرة

---

(٣٥) فى الأدب الصوفى للدكتور نظمى عبد البديع ص ١٩٦ .

ففى حسان سكرى حسان شكرى لفتية
بهم تم لى كم الهوى مع شهرتى(٣٦)

وفى ذلك يقول الشاب الورع الزاهد التقى سيدى ابراهيم الدسوقى :

ما على العاشق اذ با
ح وأبدى ما أسره
كيف يخفى وهواه
قد سقاه الحب خمره
ومناه قد دعاه
كرة من بعد كره
أيها المفكر حسانى
وهو لا يعرف قدره
قم تذق كأس عشقى
خمرة بل أى خمرة
هى للقلب شفاء
هى للسر مسرة
هى للعين اذا ما
جليت فى الكأس قرة

---

(٣٦) ديوان ابن الفارض ص ٢٤ ، ٢٥ .

هـــــى للأرواح راح
هـــــى للأشـــباح خضـــرة
هـــــى للمشـــتاق نـــــور
هـــــى للعشـــاق خمـــــرة(٣٧)

والخمرة عنـــد عبد العزيز الدرينى هى ليست خمرة حقيقية انما هى نشوة روحية ولذة معنوية يقول :

وبى ســـكر ونم أشـــرف عقـــــارا
وعانيت الهوى خبـــرا وخبـــرا(٣٨)

اذ أن اللغة الرامزة لدى الصوفى لا يمـــكن أن يستغنى عنها فى التعبير عن حبـــه الالهى والترجمـــة عن أشواقه ومواجيده ومن الظواهر اللافتة للنظر فى الحب الالهى لدى الصوفى هى امتزاج الحب ببعض الآراء والأفكار الفلسفية وتأثره بها تأثرا واضـــحا وخاصـــة عند ابن الفارض وسنشير الى أهم هذه الآراء والأفكار التى اختلطت بمذهب الحب الالهى •

١ ــ المعـــرفة :

يكاد الصوفى يجمع على أن هدفه الأسمى ومطلبه المتـــأمل هو

---

(٣٧) كتاب منير من كلام القطب الكبير سيدى ابراهيم الدسوقى ص ١٦٢ بدون طبعه أو تاريخ •

(٣٨) طبقات الشـــافعية الكبرى للسـبكى ص ٥ ، ص ٧٨ ط أولى الحسينية بدون تاريخ •

الوصول الى الذات القدسية ومعرفتها بعد الترقى فى معراج يبدأ بالتخويف والتجريد والتوبة وينتهى بالخلة والرضا وهو خلال ذلك المعراج يعانى من أحوال تعرض لها مثل المراقبة والرجاء والبسط والقبض والقرب والصد والتلوين .

ومهما يكن من شىء فان هذا الصوفى السالك الى الذات العلية ينتهى به المطاف الى كشف الحقيقة بحيث يصبح عارفا كما ينتهى الى الشعور بحقيقة ذاته من حيث هو محب(٣٩) . بعد أن قطع مقامات السفر الى ربه واختلفت عليه الأحوال خلال الترقى فى مراتب العبودية وشهد الله بعين قلبه والزهاد والمتصوفة عدة آراء تتم فى كثير منها فى اتصال وثيق بالمحبة الالهية وهى فى حد ذاتها تدل على أن الصوفى كلما أحب ربه وفنى فى ذاته القدسية كلما كان حظه من المعرفة أكبر وكلما زاد معرفة بخالقه عز وجل كلما أحبه أكثر فأكثر وهذا المعنى يتجلى فى منظومة للعارف بالله سيدى يوسف أبو الحجاج الأقصرى وعدد أبياتها ٣٣٣٣ بيتا مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٧م تصوف : ١٧٧ مجاميع يقول فيها .

محبة العبد لذى الجلال ... من أشرف الأوصاف والأحوال
والحب لله بقدر المعرفة ... به ولا تبلغ كنهه الصفة(٤٠)

والمعرفة لدى الصوفى تبدأ بسؤال عمن هو الله لا ما هو الله لأن من هو سؤال عن أسمائه تعالى وصفاته وأفعاله وأما (ما هو فانه سؤال

---

(٣٩) ابن الفارض والحب الالهى ص ٢٣٤ .

(٤٠) كتاب فى علم أصول الدين / أبو الحجاج الاقصرى ص ٢٣٨ وجه أ٠ب مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٧ مجاميع .

عن ماهية ذاته ولا ماهية لذاته) (٤١) وهى نور يقذفه الله فى قلب المريد فيدرك به أسرار ملكه ويشاهد غيب ملكوته ويلاحظ صفاته وجبروته» (٤٢) ولكى يصل الصوفى الى ذلك لابد أن يكون مر بالتحلى والتخلى حتى يصل بعد ذلك الى مرحلة التجلى فيكون محبا عاشقا لربه ومولاه سبحانه وتعالى لأن المحبة « هى الطريق الوحيد الموصل الى كنه محبته تعالى »(٤٣) والمعرفة به عز وجل وكلما أسبغ أمله على العارف من العلوم كأن أدنى وأقرب منزلة من الله سبحانه وتعالى لأنه صار أكثر حبا لله ونرى هذا فى قول ابن أبى الأفراح (ت سنة ٧٠٣ هجرية) حيث يقول :

فأصبحت متى دانيا بمعارفى وقد كنت عنى نائيا بجمودى(٤٤)

فعلى الصوفى أن يفنى نفسه فى حب الله تعالى وبموجوداته فى ذات مولاه ومن ثم نلحظ الصلة الوثيقة بين الحب والمعرفة والفناء .

وعليه أيضا قبل أن يعرف ربه أن يعرف نفسه ومعرفة النفس عند الصوفى تعنى تنقيتها وتصفيتها من الأدران ومن كل شىء عالق بها يعرقل مسيرته الى ذات الله العلية ويعوقه فى كشف الحقائق

---

(٤١) راجع حل الرموز ومفاتيح الكنوز : للعز بن عبد السلام ص٤٣ وما بعدها ط جريدة الاسلام مصر سنة ٢٨٩٩م .

(٤٢) المرجع السابق ص ٤٨ .

(٤٣) التصوف الثورة الروحية ص ٢٤٦ للدكتور أبو العلا عفيفى طبعة دار المعارف ١٩٦٨م .

(٤٤) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ص ٢ ص ٢٧٤ ط دار الجيل ببيروت .

والوصول الى المعرفة ، واذا تم ذلك صارت النفس مرآة المعارف ومصدر العلوم ومنهل المعرفة لأن (ما كان لها من علوم طبعت فيها من قديم)(٤٥) عاد لها بعد أن زالت عنها الماديات وشوائب المحسوسات وهذا المعنى يتجلى فى قول ابن الفارض :

وما هى الا النفس عند اشتغالها ... بعالمها عن مظهر البشرية
تجلت لها بالغيب فى شكل عالم ... هداها الى فهم المعانى الغريبة
وقد طبعت فيها العلوم وأعلنت ... بأسمائها قدما بوحى الابوة
وبالعلم من فوق السوى ماتنعمت ... ولكن بما أملت عليها تملت
ولاتك ممن طيشته دروسه ... بحيث استقلت عقله واستقلت
فثم وراء النقل علم يدق عن ... مدارك غايات العقول السليمة
تلقيته منى وعنى أخذته ... ونفسى كانت من عطائى ممدتى(٤٦)

والمعرفة التى ينشدها الصوفى هى المعرفة الذوقية التى منعها القلب الذى يعد مركزا للادراك الذوقى أو الفهم كما يسمونه أحيانا(٤٧) وهو لديهم بمثابة « الملكة المدركة للعلوم بواسطة الشهود الذوقى المباشر »(٤٨) ومن ثم فان المعرفة الصوفية لا تخضع لمقولات العقل ومنطقه .

---

(٤٥) ابن الفارض والحب الالهى ص ٢٤٦ .
(٤٦) ابن الفارض والحب الالهى ص ٢٣٦ .
(٤٧) التصوف الثورة الروحية ص ٢٥٤ .
(٤٨) ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ص ٢٢٩ للدكتور / الغنيمى التفتازانى ط م القاهرة سنة ١٩٥٨ .

والمعرفة الصوفية هى بمثـابة « منة » الهية تحـدث بالكشف والاشراق والالهام والتجلى وهذا المعنى نجده فى قول ابن الفارض :

فدونكها آيات الهام وحكمة لأوهام حدس الحس عنك مزيلة(٤٩)

وهذا المفهوم المتضمن معنى المعرفة لدى الصـوفية هو الذى يقوم عليه الأساس الفلسـفى لمذهبهم » وخلاصـة القول فى الحب والمعرفة التى يبغيها الصوفى هى المعرفة الربانيـة النورانية أداتهـا القلب والذوق والبصـيرة ونهايتها الكشف والاشراق وأهم ما يميزها أنها مباشرة وعلامة الصدق فيها ذاتية تشخيصية وهى معـرفة أزليـة قديمة طبعها الله فى النفس البشرية ولكنها لا تظهر الا بعد أن تتخلص النفس من أدرانها وآثامها وتعود لأصلها صفاء ونقاء وطهـارة وعفـة وقناعة وتواضعا .

ومن الآراء التى امتزجت بمذهب الحب الالهى لدى الصـوفى أيضـا .

٢ ـ الفنـاء :

عندما يتحلى الصـوفى ويتجلى فى مدارج العبودية مترقيا فى معارج الحب الالهى هائما بالذات القدسية حتى يصل به المطاف الى أصفى وأنقى درجة ويبلغ أرقى طور من أطوار الحب « فيفنى » فى حقيقة الحقائق ويتحد بها بعد انخلاعه وانسلاخه عن ماديته وتخلصه من أدران الحس وشهوات النفس .

---

(٤٩) ديوان ابن الفارض ص ٦٦ .

(٥٠) الفناء فى التصوف الاسلامى / ابراهيم ابراهيم محمد ياسين ص ٢٢ سـنة ١٩٨٠م .

وحالة الفناء التى يصل مرتبتها الصوفى « نفحة من نفحات الحب، ووميضة براقة من ومضات القلب ومعاينة لمطالع النور القدسى »(٥٠)

وحالة الفناء عند الصوفية تحمل كثير امن المعانى منها :

سقوط الأوصاف المذمومة(٥١) وهذا المعنى هو أول أنواع الفناء وفيه يرى الصوفى الصفات الذميمة حجبا كثيفة تحول بينه وبين خالقه ولكى يفنى الصوفى فى الذات الالهية عليه أن يبدأ بهذه الخطوة وهذا ما نراه فى قول ابن الفارض حيث يقول فى ذلك .

فأفنى الهوى مالم يكن ثم باقيا ... هنا من صفات بيتنا فاضمحلت
فألقيت ما ألقيت عنى صادرا ... الى ومنى واردا بمزيدتى
وشاهدت نفسى بالصفات التى بها ... تحببت عنى فى شهودى وحجبتى
وانى التى أحببتها لا محالة ... وكانت لها نفس على محيانى(٥٢)

وللفناء نوع آخر وهوأرقى درجة من النوع الأول وهو التخلى عن الارادة البشرية والبقاء بالارادة الالهية وهو ما أشار اليه السراج فى قوله : « فناء رؤيا العبد فى أفعاله لأفعاله بقيام الله فى ذلك»(٥٣)

وهو ما نراه فى قول ابن الفارض حيث يقول :

وكنت بها صبا فلما تركت ما ... أريد أرادتنى لها وأحبت(٥٤)

---

(٥١) التعريفات ص ٧٣ لعلى بن محمد الجرجانى ط الخيرية سنة ١٣٠٦هـ .

(٥٢) ديوان ابن الفارض ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٥٣) اللمع : لابى نصر السراج : ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٠

(٥٤) ديوان ابن الفارض ص ٣٧ .

ونوع ثالث من أنواع الفناء هو أرقى الأنواع لدى الصوفية ، ويعنون به الاستغراق الكامل فى الذات العليـــة والاستهلاك بالكلية فى الحقيقة القدسية ويأتى هذا النوع بعد انقلاع صفات النفس ومحق الارادة البشرية وانتفاء الاثنينية وهـــذا المترقى عموما يطلقون عليـــه « جمع الجمع » .

وبهذا النوع يصـــل الصـــوفى الى مرتبـــة ومنزلة الاتحاد بالله ويصير هو والحق شيئا واحدا وبمعنى آخر يصـــير هو والحق وجهين لحقيقة واحدة وهـــذا المعنى يشير اليه ابن الفارض قائلا :

وأشهدتنى اياى اذ لا سواى فى
شهودى موجود فيقضى بزحمـــة(٥٥)

والصوفى فى هذا النوع نراه محبا ومحبوبا فى آن واحد فان دعى كان المجيب وأن نودى كان الملبى ويشير ابن الفارض لذلك فيقول :

فان دعيت كنت المجيب وأن أكن منادى أجابت من دعانى ولبت
وان نطقتكنت المناجىكذاك وأن قصصت حديثـــا انما هى قصت
فقد رفعت تاء المخـــاطب بيننـــا وفى رفعهافرقةالفرقرفعتى(٥٦)

ويستغرق الصوفى فى حالة فنائه لدرجة أن العبـــادة التى يقيمها كأنما يقيمها لنفسه فالصـــلاة ليست صلاة الا لذاته وهو فى ذلك غير

---

(٥٥) المرجع السابق ص ٥٨ .
(٥٦) المرجع السابق ص ٣٨ .

ملوم لأنه فى حالة سكر ونشوة وحالة اتحاد وفنـــاء وهذا ما عبر عنه ابن الفارض بقوله :

كلانا مصـــلٍ واحد ســـاجد الى حقيقته بالجمع فى ســـجدة
وما كان لى صـــلى ســـواى ولم تكن
صلاتى لغيرى فى أداء كل ركعـــة(٥٧)

وفى هذه الحالة يقول ابراهيم الدسوقى عندما تجلى له المحبوب فقـــال :

أتدرى من أنا قلت أنت يا منـــاى أنا اذا كنت أنت حقيقتى
فقال كذاك الأمر لكنما اذا تغيبت الأشياء كنت كنســـختى
فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته بغير حلول بل بتحقيق نســـبتى
فصرت فناء فى بقاء مؤبد لـــذات بديمومة سرمـــدية(٥٨)

ومن ثم نلحظ العلاقة بين الفنـــاء والاتحاد ، فالاتحاد هو نهـــاية المطاف وغاية ما يرجوه ويتمناه الصوفى وهو ليس اتحاد جسم لجسم انما هو اتحاد محبة وصدق فهى حالة لطيفة يجدونها فى حالة فنائهم لأن الفنـــاء عنـــد الصوفى هو تلاشى الصوفى عن وجـــوده الحسى ويستلزم ذلك الفناء عندهم البقاء أو الاتحاد بالحياة الربانية والغاية

---

(٥٧) المرجع السابق ص ٢٤ .

(٥٨) كتاب منير من كلام القطب الكبير سيدى ابراهيم الدسوقى ص١٦٦

(٥٩) راجع الاجوبة المرضية عن قواعد الصوفية للشعرانى ورقـــة ١٥٩ وجه مخطوط بمكتبة الازهر تحت رقم ٨٠١ تصرف .

القصوى عند الصوفى أن يصير ربانيا(٦٠) بعد أن يغيب عن نفسه ويتحد بذت الله كما يبدو ذلك فى قول سيدى أحمد البدوى حيث يقول :

دنوت بذاتى ثم جئت نحانها وشاهدت امرأتاه فكرى وفكرتى
فغيبنى عنى فصرت بلا أنا دهشت بمرأهووجرت وحدتى(٦١)

وبعد الفناء فى اعتقادى — جوهر التصوف وأملهم فهم يطلبونه ويتمنونه لأنهم يبغون البقاء مع الله وبالله وفى الله وفى ذلك يقول أبو اليزيد البسطامى :

« الواصلون فى ثلاثة أحرف همهم لله وشغلهم فى الله ورجوعهم الى الله » فقد استخدم مع لفظ الجلالة ثلاثة من حروف الجر من رالى وهذا مع ملاحظة الدقة فى استخدام كل حرف بدلالته مع ما يلائمه فجعل همهم ينبغى أن يكون مبذولا من أجل الله فاستخدم السلام معه واشتغالهم ينبغى أن يكون متحضرا فى الله دون ما سواه فاستخدم « فى » .

أما الرجوع فهو المستقر ولن يكون الا الى الله فاستخدم الجار « الى » .

وهم — دائما — يجدون ذواتهم ويحسون بمواجيدهم وموجودهم

---

(٦٠) الصوفية فى الاسلام للمستشرق نيكلسون ص ١٣٩ نشر الخانجى ١٩٥٠م .

(٦١) الجواهر السنية والكرامات الأحمدية / عبد الصمد زين الدين ص ١١٥ ط سنة ١٠٢٨هـ

(٦٢) عوارف المعارف للسهروردى ص ٣٥٩ .

الحقيقى عند فقد وجودهم الحسى البشرى ومحوه فى وجود الله كما يشير الى ذلك قول ابن أبى الافراح :

وجدت بقائى عند فقد وجودى فلم يبق حد جامع لحدودى(٦٣)

وحال الفناء لا تستمر لدى الصوفى ولا يلبث أن يعود بعدها الى حالة الصحو التى يشعر فيها باثنينية المحب والمحبوب فيستأنف الحنين الى محبوبه من جديد ويشتاق الى الاتصال به وهكذا يتردد الصوفى بين حالتى الفناء والبقاء أو حالتى الجمع والفرقة وأعنى بها الاتصال بالمحبوب والانفصال عنه وهما اللتان يعبر عنهما الصوفية أحيانا بحالتى الغيبة والحضور وفى حالة الغيبة يحس الصوفى سعادة غامرة ونشوة ولذة وهو يتلذذ بالحبيب المحبوب وفى الثانية يشعر بالغصة والهجر والألم والحسرة لتوقف المشاهدة فيعود يطلب الجمع مع محبوبه لأن محبوبه كتب عليه ذلك الحب منذ الأزل وهذا الشعور بالحب الازلى القديم هو الذى يجعل الصوفى فى شوق دائم وود دائم الى الاتحاد بالله والفناء فى المحبوب وهو مايعبر عنه ابن الفارض فيقول :

وما بين شوقه واشتياقى فنيت فى تولّ بحظر أو تجل بحضرة
فلو لفنائى من غنائك رد لى فؤادى لم يرغب الى دار غربة(٦٤)

وأشار الى ذلك أيضا ابن عطاء الله السكندرى حيث قال :

وأية نفس لم يملها هواكم على حبكم طرا نفوس الور

---

(٦٣) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ ١ ص ٧٤ .

(٦٤) ديوان ابن الفارض ص ٢٦ .

فأى فـــؤاد عن ودادك ينثنى
وأى عين بعـــد قربك لى تغفـــو
وأية نفس لم يملهـــــا هـــواكم
على حبكم طرا نفوس الورى وقف(٦٥)

ومما يجب الاشارة اليه أن الفناء الصوفى هو فناء عن الشعور بالنفس ذوبان الروح البشرية فى الحقيقة العليـــا لا فناء يقصـــد به محو الذات الانسانية فى الذات الالهية لأن ذلك يتعـــارض وحقيقـــة التنزيه التى جاد بها الدين الاســـلامى الحنيف وأظـــن والله أعلم أن الفناء الذى يصل اليه الصوفى يمكن أن يعد طريقا وأساسا الى القول بوحدة الوجود اذا قصد به محو الوجود الانسانى وعـــدم الاحساس بهـــذا الوجـــود البشرى وأن ليس هنـــاك من وجودية الا وجود الله سبحانه وتعـــالى ٠

٣ ــ ومن الآراء التى امتزجت بالحب الالهى كذلك الوحـــــدة الصوفية ومفهوم الوحدة الصوفية لدى الصوفى هو وصول الصوفى فى نهاية حبه الالهى الى حال الفناء فى الله حينما يصل لهذه الحالة تنتفى اليه الاغيار وتسقط الاثنينية وتنمحى عنه الرسوم فلا يشـــهد غير الله ولا يرى الا الذات القدسية وفى قمة هذا الفنـــاء يتحد بالله تعالى لدرجة أنه لا يشـــعر بذاته لأنهـــا ذابت فى ذات الله ولا يقف الصوفى عند هذا الحد من الاتحاد بل يتعدى ذلك الى رؤية الأشياء والكائنات والأديان بعين الحقيقة والوحدة فلا تكثر ولا تعد بل الكل

---

(٦٥) لطائف المنن لابن عطا الله ص ٢٢ ط ١١٧٧هـ ٠

واحد والحقيقة واحدة وهـذه هى النتيجة الطبيعيـة للحب الالهى لدى الصـوفى .

وفى ذلك يقول ابن الفارض :

تجلت فى تجليها الوجود لناظرى ففى كـل مرئى أراهـا برؤية
وأشهدت عينى اذ بدتفوجدتنى هتـالك اياهـا بحلوة خلوتى
أروح بفقـد بالشـهود مؤلفى وأغدو بواجب الوجود مشتى(٦٦)

ويشير الى ذلك ابراهيم الدسوقى قائلا :

تجلى لى المحبوب فى كل وجهه فشاهدتهفىكل معنى وصورة(٦٧)

ومهما يكن من شىء فان الصـوفية لم يغرموا بفن من الفنـون يديرون حوله قصـيدهم ومرامهم قدر غرامهم بالحب الالهى الذى أبدعوا فيه ابداعا يفوق النظير لأنهم :

١ ــ وجهوا هذا الحب لله وفى الله والى الله .

٢ ــ أطالوا فيه القصيد فلم يقفوا عند حد الأبيات أو المقطوعة وتائية ابن الفارض خير دليل على ذلك .

٣ ــ بحبهم الذات العليا صـار هذا الحب حبا عاما وشـاملا

---

(٦٦) ديوان ابن الفارض ص ٣٨ .

(٦٧) الكواكب الدرية لعبد الرءوف المناوى ورقة ٣٣٥ وجه (ب) مخ بمكتبة الازهر رقم ٤٢٧١٧ .

لسائر أثار رحمته تعالى فأحبوا الانسانية جمعاء والكون بأسره لتجلى جمـــال الله فيه •

ويقول فى ذلك الحـــــلاج :

ولا همت بشرب المـــاء من عطشى
الا رأيت خيـــالا منـــك فى الكأس

٤ ــ ظهرت فى شعر الحب شخصيتهم التى أبدعت الحب الالهى • ولهـــذا الحب الالهى الذى أبدعه الصوفية نراه امتاز بالحقائق الآتية :

(أ) ان ألفاظه تميل الى التركيز فى معانيها فنراها فى وقتهـــا وما حملته من مشـــاعر فياضـــة أكسبت المعـــانى العمق فى أسلوبهم التعبـــيرى •

(ب) نلاحظ الرقة والشفافية فى تعبيرهم عن هـــذا الفن مع الميل الى الايمان والرمز ومع ذلك لا تهجر العبارة رقتها وشفافيتها •

(ج) تعد المعـــانى التى طرقوها مبتكرة لم يسبقهم اليها أحـــد فهم سدنتها لأنهم شعراء معان ولا حاجة لهم بالألفاظ •

(د) امتاز الصوفية فى حبهم بالترفع عن الغرضية فحبهم خالص للذات العليـــــة •

(هـ) امتازوا بالأخلاق الحسنة والتواضع والمذلة من أجل ارضاء محبوبهم والفناء فيـــه •

(و) نجدهم متفانون فى حبهم على حب درجات الترقى بين الكتمان والافصاح به •

(ز) تأجج العاطفة وتلونها ما بين قرح وترح على حسب ما تكون حـــالتهم •

(ح) الاتجاه فى معظم تعبيراتهم الى الرمزية والميل الى استخدام أساليب التجسيم من تشبيه واستعارة وايماءات تحمل فى طيها التكنيه عما يريدون •

وبهذا أصبحوا بحق قادة فـداء وشهداء محبة فى سـبيل الحب الالهـــى •

دكتـــور
عبد الحميد الضوى لبيب على
مدرس الأدب والنقـــد
بكلية الدراسات الاسلامية والعربية بنـين بقنا